ثقافة اليونان والرومان
وأثرهما في طه حسين

الأستاذ محمد عبد الغني حسن

— ٢ —

وأخذ طه حسين بعد ذلك يبين مرامي توفيق الحكيم من قصته ، وهي في حق مرام واضحة لم تكن في حاجة إلى تفسير ...

ويبلغ من إعجاب الدكتور طه حسين بالثقافة اليونانية أنه كان يستحضر حوادثها ومروياتها ومأثوراتها في الاستشهاد بها في معرض الرد على خصومه حين يخاصمونه على القضايا التي كانت تشغل الناس في وقته . فحين ناقشه المرحوم المؤرخ الجليل رفيق العظم على صفحات صحيفة « السياسة » سنة ١٩٢٣ حول آرائه حول الشاعر أبي نواس ومن في طبقته من شعراء المجون بأنهم كانوا مثالاً صادقاً للعصر العباسي الذي عاشوا فيه ، وأن أخبارهم صحيحة لا غبار عليها ، وأكد له أن هذا التصديق المطلق لكل خبر لا يصح للمؤرخ المحص أن يسلم به ، أو يسكت عليه ، — حين نشر رفيق العظم هذا الكلام ردّ عليه طه حسين بمقال في السياسة أيضاً يذكر له فيه رسالة صغيرة قرأها للمؤرخ اليوناني « بلوتارك » — وقد رسمه طه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

حسين هذه المرة على هذه الصورة بدلاً من : فلوترخس ، الذي رسمه عليها في كتابه : قادة الفكر — يقول فيها : (ولقد أذكر رسالة صغيرة قرأتها للمؤرخ اليوناني « بلوتارك » « Plutarque » قصد بها إلى نقد « هيرودوت » « Herodote » ، واتهمه فيها بالكذب والافتراء . وكان لهذه الرسالة في العصر القديم شهرة أساءت إلى « أبي التاريخ » فظن فيه الناس الظنون ؛ لأنه اتهم قدماء اليونان وأبطالهم في الحرب الفارسية اليونانية بالنقائص المختلفة ، فوصف بعضهم بالخيانة ، وبعضهم بالغدر ، وبعضهم بالجبن ، وبعضهم بالرشوة . ونهض بلوتارك للدفاع عن هؤلاء الأبطال ، فزعم أن « أبا التاريخ » كاذب ، وأن هؤلاء الأبطال أرفع مكانة ، وأعلى منزلة ، وأجل خطراً من أن يقعوا في مثل هذه الآثام . وفتن اليونان بهذا النقد ، لأنه يبرىء الآباء والأجداد من هذه النقائص . فلما كان العصر الحديث ، وكان استكشاف الآثار اليونانية ، وكان استكشاف مناهج النقد الحديثة في التاريخ ، ظهر أن « هيرودوت » لم يكذب ، ولم يتكلف ، وأن « بلوتارك » هو الذي تكلف تقديس الناس وتبرئتهم مما لا يبرأ منه الناس . وليس هذا بغريب ؛ فقد عاش « أبو التاريخ » في أيام مجد اليونان وعزتهم ، فلم يكن يؤذيه ، ولم يكن يؤذي اليونان ، أن يصف أبطالهم بما لا يسلم منه الناس من العيوب . وعاش « بلوتارك » أيام ذلة اليونان وانحطاطهم السياسي ، فكانت هذه النقائص تؤذيهم ، وكانوا محتاجين إلى المبالغة في مجدهم التليد حين أعوزهم المجد الطريف ..)[1] .

ونحن هنا لا نثير هذه القضية لنكشف عن صواب ما ذهب إليه طه حسين من رأي أو خطئه ، فلذلك مقام غير هذا المقام ، وقد تولاها

(١) حديث الأربعاء لطه حسين — جزء ٢ ص ٦٥ ، ٦٦

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المرحوم رفيق العظم بك بالدفاع المجيد عن وجهة نظره التي اتفق الناس في حينها على أنها وجهة صحيحة . ولكننا سقناها هنا للتدليل على استفادة الدكتور طه حسين من مسائل الفكر اليوناني والتاريخ اليوناني ، ليدافع بها عن وجهات نظره أمام خصومه في الرأي .

وليس أدلّ على سلامة وجهة نظر المرحوم المؤرخ رفيق العظم من أن المرحوم إبراهيم عبد القادر المازني دخل طرفاً آخر في القضية المثارة بين الرجلين ، وحمل على طه حسين حملة شديدة غير هينة ولا رفيقة ، وتساءل لماذا يحاول الدكتور طه أن يجسم فضائح عصر من أزهى عصور الحضارة العربية الإسلامية بدعوى أنه يجري على نحو من أنحاء الأدب الغربي — بالغين المعجمة — ولماذا يختار هذه الجوانب المنحطة من الحياة العربية ، ويترك الجوانب المشرقة الوضيئة ، إلا إذا كان ذلك عن عمد مقصود لا مجال فيه للتأول والإحالة على مجرد المصادفات والاتفاق (١) .

وكثيراً ما بلغ إعجاب الدكتور طه حسين بالثقافة اليونانية واللاتينية حداً نادى فيه نداء عالياً مجلجلاً بوجوب تعليم لغة اليونان والرومان القدماء ، لا في المعاهد العالية والجامعات وحسب ، بل في التعليم العام ، ويعني به التعليم الثانوي . وفي هذا الشأن صرح بقوله : (أنا مؤمن أشدّ الإيمان بأن مصر لن تظفر بالتعليم الجامعي الصحيح ، ولن تفلح في تدبير مرافقها الثقافية الهامة ، إلا إذا عُنيت بهاتين اللغتين ، لا في الجامعة وحدها ، بل في التعليم العام قبل كل شيء ؛ لأن اللاتينية أساس من أسس العلم والتخصص ولأن التعليم العالي الصحيح لا يستقيم في بلد من البلاد الراقية إلا إذا اعتمد

(١) قبض الريح — لأبراهيم عبد القادر المازني .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

على اللاتينية واليونانية ، على أنها من الوسائل التي لا يمكن إهمالها والاستغناء عنها ...) [١] .

والدكتور طه حسين — رحمه الله — حرّ في أن يرى من وجوب تعليم اللغات الأجنبية ، القديمة والحديثة ما يشاء ، ولكنه غير حرّ حين يرى أن يزحم التلاميذ في التعليم العام ، والطلاب في الجامعات العربية بلغتين قديمتين فوق زحمتهم بالانجليزية والفرنسية ، مع إمكان التخصص لمن يشاء من الطلاب .

وبالطبع لم تقابل وجهات نظر طه حسين في هذا المجال بالقبول عند كثرة من الباحثين والمثقفين العرب ، فقد تصدّى للردّ عليه ومناقشة آرائه جماعة منهم المرحوم الأستاذ ساطع الحصري ، مؤسساً ردّه على أن اللغتين اليونانية واللاتينية قد سادتا أوربا حتى بعد انقراض حضـــارة الأغريق وحضارة الرومان — لعوامل كثيرة ليس لها مجال في بلادنا العربية ، ولا ضرورة لها ، ومن تلك العوامل أن (اللاتينية كانت لغة رومـا في القرن الأول ، غير أنها صارت بعد ذلك لغة الطبقة المديرة المستنيرة في جميع أنحاء أوربا الغربية عندما دخلت تحت حكم روما ، كما أصبحت لغة الدين والصلاة في تلك البلاد عندما اعتنقت الديانة المسيحية ، وأخيراً صارت من دعائم الكنيسة الـكاثوليكية عندما تكونت الكنيسة المذكورة ، وأخذت تبسط سلطتها على جميع الدول والدويلات التي تدين بهـــا . أما اليونانية فقد حافظت على كيانها في معظم البلاد التي انتشرت فيهـا بالرغم من استيلاء الرومان عليها ، كما أنها أصبحت لغة الدولة بعد انفصال الشرق

(١) طه حسين بين أنصاره وخصومه ص ١٩٩

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من الغرب ، وتكوّن الامبراطورية الشرقية مستقلة عن الامبراطورية الرومية الغربية ، كما أصبحت لغة الدين والصلاة في العالم الأرثوذكسي عندما اعتنقت الأمبراطورية المذكورة الديانة المسيحية ، وأخيراً ، وبهذه الصورة ، تقاسمت اللغتان اللاتينية واليونانية السيطرة على الحياة الدينية في أوربا المسيحية ، فأصبحت الطقوس والصلاة المسيحية تحت احتكار اللاتينية في أوربا الغربية في جميع البلاد التي اعتنقت المذهب الكاثوليكي ، وتحت احتكار اليونانية في أوربا الشرقية في جميع البلاد التي اعتنقت المذهب الأرثوذكسي . أما الحياة الأدبية في القرون الوسطى فمن المعلوم أنها لم تجد من يزاولها ويهتم بها إلا من بين رجال الدين ، فعاشت وترعرعت تحت ظلال الكنائس ..)[1].

ولم يسكت الدكتور طه حسين عن المطالبة مرة ومرة بتعليم اللغتين اليونانية واللاتينية ودرسهما في المعاهد، فحين أصدر كتاب (نظام الأثينيين) الذي ترجمه عن أرسطو كتب له مقدمة طويلة أبدى فيها أسفه وخجله لأن الأصل المخطوط لهذا الكتاب اكتشف في مصر سنة ١٨٩١ م مكتوباً على البردي باللغة اليونانية القديمة ، ولكن قراءة هذا الأصل غير ميسورة ولا نافعة إذ ليس من طلبة الجامعة المصرية من ألمّ بهذه اللغة .. (فمالي لا أفسر لهم ترجمته العربية ، إذا كان الشقاء قد قضى علينا ألا نعنى باللغات القديمة ، ولا نحفل بدرسها) [2] .

وهكذا نرى الدكتور طه حسين يعد عدم تعليم اليونانية واللاتينية في معاهد مصر شقاء يدعو إلى الخجل والحسرة .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٠٠

(٢) نظام الأثينيين ص ٨

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولم يقف طه حسين عند اليونانية واللاتينية بالقدر الذي بلغه في أثناء دراسته بجامعتي باريس ومونبيليه ، ولم يجعل لما درسه منهما نهاية يقف عندها ؛ بل أخذ منذ عودته من فرنسة يصل متابعاته القرائية لما استجد من الدراسات والكتب في هذا الميدان . ففي سنة ١٩٢٥ – أي بعد عودته من أوربا بست سنوات — يكتب كتابه « قادة الفكر » — كما سلف القول – ونقرأ نحن في سطور هذا الكتاب أنه مشغول بكتاب ظهر في تلك الأيام موضوعه تاريخ الفكر اليوناني لأستاذ من علماء هذا الميدان في فرنسة اسمه المسيو « ليون روبان » ، ويعلن أن (هذا الكتاب الضخم القيّم ليس أول كتاب ظهر في هذا الموضوع ، ولن يكون آخر كتاب بل ليس هو الكتاب الوحيد الذي ظهر في هذه الأيام من نوعه . وإنما هناك كتب كثيرة ظهرت ، وتظهر ، وستظهر في هذا الموضوع ، لأن الأوربيين يتخذون هذه القاعدة قانوناً لهم ، وهي أن ليس إلى فهم الحياة الحديثة على اختلاف وجوهها من سبيل إلا إذا فهمت مصادرها الأولى . ومصادرها الأولى هي الحياة اليونانية من جهة ، والرومانية من جهة أخرى أو قل : هي الحياة اليونانية ، لأن حياة الرومان كانت — من أكثر وجوهها — متأثرة بالحياة اليونانية) (١) .

وقد يقول قائل ، أو يعترض معترض ، بأنه ما لنا — نحن المصريين أو العرب — بالحياة الحديثة التي تأثرت بمصدرها الأول في الحياة اليونانية؟ وقد فطن الدكتور طه حسين إلى أن سؤالاً مثل هذا قد يقوم في نفس

(١) قادة الفكر ص ٥٣

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

القارىء فقال مرسلا الحديث : (وإذ كنا قد أخذنا في هذا العصر الحديث نسلك سبيل الأوربيين ، لا في حياتنا العقلية وحدها ، بل في حياتنا العملية على اختلاف فروعها أيضاً ، فليس لنا بدٌ من أن نسلك سبيل الأوربيين في فهم هذه الحياة التي استعرناها . أقول : إننا أخذنا في هذا العصر الحديث نسلك السبيل الأوربية في جميع فروع الحياة ، ونعدل عن حياتنا القديمة عدولاً يوشك أن يكون تاماً . وأحسب أنك لن تطالبني بالدليل على ذلك ، فأنت في المدرسة تتعلم العلم الأوربي ، وأنت إذا قرأت تقرأ العلم الأوربي ، وإذا فكرت فعلى النحو الأوربي . وأنت في بيتك وفي صلاتك المختلفة تسلك المسلك الأوربي ، وأنت في حياتك السياسية وفي نظامك الإداري والاجتماعي تنهج المنهج الأوربي . وما أحسب أننا نكتفي من هذه الحياة بتقليد القردة ، وإنما أعلم أننا نريد أن نتخذها حياة لنا عن فهم وبصيرة . وإذن فلنفهمها قبل كل شيء ، ولنتبين – إذا كان الأمر كذلك – كيف كانت حالة الفكر في تلك العصور اليونانية الخصبة ، وكيف كانت قيادة الفلسفة إياه . ولنبدأ من هؤلاء الفلاسفة الذين أشرفوا على قيادة الفكر اليوناني ، ولا يزالون يشرفون على قيادة الفكر الإنساني ، بأبيهم وزعيمهم جميعاً : سقراط) (١) .

وبمناسبة الحديث عن (قادة الفكر) ، وموضوعه قادة الفكر عند اليونان والرومان ، نستطرد قليلاً ، ونستأذن القارىء الكريم في هذا الاستطراد ، لنتحدث عن المنهج الذي اتبعه الدكتور طه حسين في الترجمة

(١) المصدر نفسه ص ٥٤ ، ٥٥

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لقادة الفكر ، فهو لم يسلك المذهب الفردي الذي يتصل بحياة الأشخاص والأفراد اتصالاً مطلقاً ، ويهمل نواحي المجتمع الذي أنجبهم وعاشوا هم فيه ، لأن الآراء والآداب على اختلافها ظواهر اجتماعية أكثر منها ظواهر فردية ، أي أنها أثر من آثار الجماعة التي نبتت فيها أكثر من أن تكون أثراً من آثار الفرد الذي اتخذها .

وهو لم يسلك المذهب الجماعي الذي يغالي في تقدير الجماعة والمجتمع ويضيف كل أثر إليها وحدها ، حتى ليكاد « الفرد » يضيع أو ينسى في خلال الجماعة نسياناً تاماً .

ولكن طه حسين سلك مذهباً بين الاثنين ، فلم يهمل المجتمع على حساب الفرد ، ولم يغفل عن الفرد على حساب الجماعة .

وكان من الفضل لطه حسين في هذا المجال أنه تأثر به قوم من كتاب التراجم والسير المعاصرين ، فاعتدلت كفتا الميزان في أيديهم بين تقدير الفرد وتقدير المجتمع .

ومن الحق أن نقول إن الدكتور طه حسين في مؤلفاته التي عالجت موضوعات الفكر والأدب والثقافة اليونانية على العموم قد أثار كثيراً من المسائل التي تتصل بهذا المجال ، وخاصة في ميدان الشعر وتطوره إلى غناء وقصص وتمثيل ، وفي تحول الفكر اليوناني من عبادة الأشياء ورهبتها إلى محاولة فهمها ، وفيما أخذته اليونان عن الشرق القديم من حضارة واعترافها بجميله ، وفي فضل الحكام الفاتحين من أمثال الاسكندر المقدوني ، ويوليوس قيصر الروماني على الفكر العالمي بمحاولة التقريب بين الشرق والغرب ، وفي التعرض للحديث عن شخصية هوميروس صاحب الأليادة ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وهل هو شخصية حقيقية أم خرافية ، وغير ذلك من أمثال هذه المسائل التي شغف بها القارىء العربي الذي لم يكن يعرف عنها شيئاً .

ففي مجال الحديث عن الشاعر اليوناني هوميروس يعرض لنا طه حسين عن صنوه في العاهة صورتين : أولاهما يونانية ، تمثل لنا هوميروس بطلاً أسطورياً من الأبطال نشأ من علاقة زواج بين نهر من أنهار آسيا الصغرى وبين امرأة من عامة النساء ، وتقص علينا من أخباره قصصاً تثير الإعجاب، ولكنها لا تحمل على التصديق بها . وثانيتهما صورة أخرى صوّرتها أوربا في القرن التاسع عشر لهذا الشاعر ، تمثله رجلاً عادياً من الرجال ، وواحداً من البشر ، لا مجال للأسطورة فيه . على أن آخر ما تمثلته أوربا من الصور لهوميروس هو إنكار شخصيته تماماً ، وأنه ما هو إلا تجسيد للأمة اليونانية كلها في مرحلة بداوتها . وأن الأليادة ، والأوديسة ليسا من عمله وإنما من عمل الأمة اليونانية كلها .

وفي مجال الحديث عن بداوة اليونان وبداية الشعر فيها يحدثنا الدكتور طه حسين في كتابه (قادة الفكر) عن نشأة الشعر في اليونان وعن الشعراء الذين كانوا قادة الفكر في أثناء البداوة اليونانية ، كما كانوا في بلاد العرب قبـــل الإسلام . وكيف كان الشاعر في قصصه يغنّيه ويلحنه ، وكيف كان الناس يستمعون إليه في لذة واستمتاع ، وكيف كانوا يروون عنه أناشيده الجميلة الرائعة وهم في مرحلة البداوة من حياتهم ، إلى أن تحضرت البلاد ، فأخذت حكوماتها المنظمة تعنى بهذه الأشعار الملحنة المغناة وتهتم بتدوينها . . .

وتطور الشعر القصصي في بلاد اليونان إلى شعر غنائي يتغنى بالعواطف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الانسانية المختلفة ، ولا يقتصر على القصص ، ثم تطور القصص والغناء في الشعر وبالشعر إلى التمثيل في الملاعب . ولم يجد الناس صعوبة في إيجاد شعر جديد يصلح للتمثيل على المسارح ، فلجأوا إلى الشعر القصصي القديم ووجدوا فيه استجابة لمطالبهم .

وتطور الشعر والغناء والتمثيل بتطور الأمة إلى فلسفة وحكمة ، ولكن هذه الفلسفة لم تطرد الشعر القصصي القديم ، ولم تجعل الناس ينصرفون عنه ، لأنه كان مستودع المثل العليا في الأخلاق والحياة الإنسانية الساذجة البريئة ...

وما زال الناس في الغرب إلى يومنا هذا يلتمسون نماذجهم عند شعراء اليونان ، فإذا هم ينشئون قصصهم وقصائدهم على نحو ما كان يفعل اليونان ، متأثرين بالألياذة والأوديسة . ولم يكتف الأوربيون في زماننا هذا بهذا التقليد والأخذ ، بل أخذوا يترجمون القصص اليونانية القديمة إلى لغاتهم ويمثلونها على مسارحهم [1] .

ولم يفت الدكتور طه حسين في معرض الحديث عن هذه المسائل اليونانية والرومانية ، أن يتحدث عن العلاقة بين اليونان والشرق المتحضر . فقرر أن الشرق كان قد بلغ درجات عالية ، من الحضارة الراقية ، في الوقت الذي كانت فيه اليونان أمة بدوية ساذجة تستمع إلى الشعر القصصي والغنائي وتعجب به ، وتطرب له .

وكان تبادل الأفكار والعلوم والثقافات متبادلاً بين الشرق القديم

---

(١) قادة الفكر ص ٢٢ إلى ص ٢٨

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وبلاد اليونان القديمة وخاصة حين أخذت هذه في أسباب الحضارة والمدنية ، على سنة الأمم دائماً حين تأخذ من غيرها وتعطي . (فأخذ اليونان عن الشرقيين أشياء كثيرة ، ولكنها عملية مادية كما قلنا . أخذوا عنهم - مثلاً - نظام النقد ، وأخذوا عنهم نظام المقاييس ، وأخذوا عنهم شيئاً من الموسيقى وتعلموا منهم فنوناً عملية كالحساب والهندسة . ولكنهم لم يأخذوا عنهم شيئاً عقلياً يذكر . فلئن كان البابليون قد رصدوا النجوم ووصلوا من ذلك إلى نتائج قيمة ، فهم لم يضعوا علم الفلك ، وإنما هذا العلم يوناني ، لم ينشأ عن النتائج البابلية ، وإنما نشأ عن البحث اليوناني والفلسفة اليونانية . ولئن كان المصريون قد وصلوا إلى نتائج قيمة من الهندسة العملية والآلية ، فليس المصريون هم الذين وضعوا علم الهندسة ، وإنما اليونان هم الذين ابتكروه ابتكاراً ..) [1] .

ولكن كان عند اليونان شيء آخر غير الفنون العملية ، امتازوا به ، وخُصوا به وحدهم من دون أمم الأرض جميعاً . كان عندهم (المذاهب الفلسفية المختلفة التي حاولت منذ القرن السادس قبل المسيح فهم الكون وتفسيره وتعليله ، ثم نجد عندهم هذه الفلسفة : فلسفة ما بعد الطبيعة ، وما نشأ عنها من أنواع البحث التي نظمت العقل الإنساني ، ولا تزال تنظمه إلى الآن . ثم نجد عندهم هذه الفلسفة الخلقية التي أنشأت علم الأخلاق ، والتي لم يعرفها العالم القديم من قبل ..) [2] .

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٨ ، ٤٩

(٢) المصدر نفسه ص ٤٩ ، ٥٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
www.alukah.net

ويضيف الدكتور طه حسين إلى ما عند اليونان من أشياء لا توجد في الشرق القديم (هذا التطور السياسي الخصب ، الذي أحدث النظم السياسية المختلفة في المدن اليونانية من ملكية وجمهورية وارستقراطية وديمقراطية معتدلة أو متطرفة ، والذي لا يزال أثره قوياً في أوربا إلى اليوم ، والذي أخذ الشرق يتأثر به في نظمه السياسية أيضاً ..) (١) .

وعلى حين كانت هذه النظم السياسية المختلفة متعاقبة على بلاد اليونان أو سائدة فيها كان الشرق القديم يسوده نظام سياسي واحد يخضع له تمام الخضوع لم يتغير ولم يتبدل ، وهو نظام الملكية المطلقة المستبدة الذي لا بقاء معه لحرية الأفراد والجماعات ، بل تذوب فيه قدرة المحكوم ومقدّراته في سلطان الحاكم .

والحق أن اليونان وثقافتها المتنوعة وأدبها وتاريخها وفنونها ظلت تراود فكر الدكتور طه حسين منذ دراسته للتاريخ القديم في فرنسة وحتى عودته منها ، وبعد عودته واستقراره فيها بزمان طويل . وقد لا نعدو الحق إذا قلنا إنها ظلت تراوده طول حياته .

ففي رحلة للدكتور طه حسين إلى أوربا في ربيع سنة ١٩٤٨ طاف ببلاد كثيرة في طريقه إلى فرنسة وإيطاليا . وفي جوازه ببلاد اليونان وقف عند القلعة في مدينة أثينا عاصمة تلك البلاد وقضى فيها ساعتين استحضر فيها كثيراً من الذكريات عن ماضي اليونان خلال ثلاثة قرون من عمر الزمان . وخشية أن يفسد الاقتباس ما نريد أن نرويه من كلام طه حسين

---

(١) المصدر نفسه ص ٥١ ، ٥٢

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في هذا الصدد ، فاننا نؤثر نقله كاملاً بنص عبارته ، حتى يبقى للقارىء وجه الاستمتاع به . وما أرقّ الدكتور طه حسين وهو يحدثنا عن هذه الأطلال اليونانية قائلاً : (... وقضينا في القلعة ساعتين ، عشنا فيها ثلاثة قرون كاملة . فاعجب إن شئت لثلثمائة سنة تختصر في ساعتين ، فهذه خصلة خص بها الإنسان ، تتيح له أن يختصر الزمان إن شاء أن يختصره ، وأن يتجاوز الزمان إن أراد أن يتجاوزه ، وأن يخلص للماضي أو لقطعة من الماضي إن أحب أن يخلص لها ، وأن يمضي في المستقبل إلى غير غاية ، وعلى غير هدى ، وأن يقف في الحاضر لا يعدوه إلى أمام ، ولا إلى وراء ، وأن يجمع إن شاء بين هذا كله فيغرق نفسه تغريقاً . وقد تركنا المستقبل لمن بيده المستقبل ، وتركنا الحاضر للذين يشغلون بالحاضر ، وألغينا من الماضي ثلاثة وعشرين قرناً ، وأهملنا من الماضي قروناً أخرى لا تحصى سبقت هذا العصر الذي اخترناه ووقفنا عليه هاتين الساعتين . وألغينا من آماد المكان مثل ما ألغينا من آماد الزمان ، فتركنا الأرض القريبة والبعيدة ، وتركنا البحر والمحيط ، وتركنا الجو الذي يغمر البر والبحر ، ووقفنا عقلنا وشعورنا وحسنا على هذه القطعة الصغيرة من الأرض ، في هذه القطعة الصغيرة من الدهر . وجعلنا نسعى مبطئين مترفهين ، ونقف متأملين متفكرين بين هذه الأطلال اليونانية ، لا نعرف غيرها ، ولا تكاد هي تعرف غيرنا ، فقد سبقنا إليها أهل السفينة جميعاً ، وبلغناها قبل أن يبلغها أحد ، فخلونا إليها ، وخلت إلينا ، وقلنا لها وقالت لنا ، وملأنا منها قلوبنا ، وانصرفنا عنها وقد ملأت علينا آفاق الأرض والسماء ، فذكرناها وسنذكرها ما امتدت لنا أسباب الحياة ، ونسيتنا هي وستنسانا كما نسيت أجيالاً كثيرة وكما

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ستنسى أجيالاً كثيرة ما امتدت لها أسباب البقاء . وكان الذين يكتنفونني من الأهل والرفاق يسعون من حولي ، وقد أخذت أبصارهم ، وسحرت عقولهم ، واستهويت قلوبهم . وجعلت أفواههم وألسنتهم تنقل إليّ بعض ما يجدون بهذه الآهات الطويلة المتصلة ، وهذه الألفاظ القليلة المتقطعة التي ينطق بها المبهورون المسحورون حين يأخذ الإعجاب عليهم طريق الإبانة والإفصاح . وكنت أسمع لهم بأحدى أذني ، أو بجزء يسير من إحدى أذني . أعرض عنهم بعقلي كله ، وقلبي كله ، وضميري كله . أتركهم لما يرون ، وأفرغ لما أجد ، وما أكثر ما كنت أجد ! وما أشد اختلاف ما كنت أجد ! فليس بالقليل على الإنسان المحدود أن يعيش في هذه القرون الثلاثة ، فيشهد نشأة العقل ، ونمو الفن ، وحياة الشعور ، ويقظة الضمير . ويرى طريق الحضارة والرقي ترسم للأجيال ، وتقام فيها الأعلام تدفع إليها الإنسانية دفعاً ، ويقال لها هذه هي الطريق التي ستسلكينها راضية أو كارهة ، راغبة أو راهبة ، لا تخرجين منها ، ولا تتحولين عنهـا ، مهما تلقي فيها من الخير والشر ، ومهما يعترضك فيها من النعيم والبؤس ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وحتى تطوى السماء كطي السجل للكتاب . . .

في هذه القرون الثلاثة ، وفي هذه القطعة الضيقة من الأرض التي يحيط بها الطرف في أيسر الجهد ، ويطوف بها الإنسان في أقصر الوقت ، عرف الإنسان أن له عقلاً وشعوراً وضميراً ، وأن له — من أجل ذلك كله — حقاً في أن يكون حرّاً كريماً ، وأن عليه من أجل ذلك واجباً أن يرعى لنظرائه حقهم في الحرية والكرامة والامتناع على الضيم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

في هذه القرون الثلاثة من الدهر ، وفي هذه الرقعة الضيقة من الأرض ، نشأت الديمقراطية ، فعرف الإنسان أن سلطان الحاكم لا يتنزل من السماء ، وإنما يخرج من الأرض ، وأن بين الحاكم والمحكوم عقداً اجتماعياً تصدره القوانين المكتوبة ، والدساتير التي تنقش في القلوب أولاً ، ثم تكتب في الصحف بعد ذلك .

وعرفت الانسانية أن الناس سواء أمام القانون ، لا يمتاز منهم فرد من فرد ، ولا تتفوق منهم طبقة على طبقة ، ولا يتفاوتون فيما بينهم إلا بالعمل الصالح والبلاء الحسن . واستطاع (سولون) أن يتغنى في شعره الرائع بأنه حرر الأرض ، فلم تصبح وقفاً على فريق من الناس دون فريق .

في هذه القرون الثلاثة من الدهر ، وفي هذه الرقعة الضيقة من الأرض نظمت القوانين ما يكون من الصلات بين الحاكمين والمحكومين، وردت القوانين إلى الشعب أمور الشعب ، وجعلت القوانين حكام الشعب خداماً للشعب ، وفرضت القوانين على حكام الشعب أن يؤدوا إلى الشعب حساباً دقيقاً عما نهضوا به من المناصب ، وما استقلوا به من الأعباء ، وما قاموا به من الأعمال .

في هذه القرون الثلاثة من الدهر ، وفي هذه الرقعة الضيقة من الأرض ، نما الفن الرائع ، وزها الشعر البارع ، وأزهر الأدب الرفيع ، وطوف « سقراط » بفلسفته في الشوارع والأزقة ، يعلم الناس — وهو يحاورهم — أن عليهم أن يعرفوا أنفسهم وأن يثقفوها وأن يهذبوها ، وأن يرفعوها من الصفو والعفو إلى حيث تطهر من دنس المنافع الوضيعة ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وتبرأ من أوضار الحياة الخسيسة ، وتعيش في جو من الفضيلة لاتجد الرذيلة إليه سبيلا . ويعلم الناس — وهو يحاورهم — أن للإنسان ضميراً حرّاً ليس لأحد سلطان عليه ، ولا ينبغي أن يكون موضوعاً للمساومة ، ولا سلعة تعرض للتجارة . وأن حرية الضمير ، وحرية التفكير ، وحرية التعبير هي التي تجعل الانسان إنساناً . فلما امتحن سقراط في فلسفته هذه صبر للمحنة ، وثبت للفتنة . وعلم تلاميذه — وهو يحاورهم — كيف يستقبل الانسان الحر إلمام الخطب حين يلمّ ، وزيارة الموت حين يزور ، مبتسماً للخطب لأنه زائل ، وساخراً من الموت لأنه عارض من ورائه الخلود . وفي هذا الوقت نفسه كان « سوفوكل » يُنطق « أنتيجونا » في ملعب التمثيل بأن هناك قوانين خالدة وجدت قبل الإنسان ، وستوجد بعد الانسان ، وهي قوام الخلق ، وملاك العقل ، فليس لأحد عليها سلطان ، وليس للمخلوق على الناس طاعة إن خالف عن هذه القوانين .

نعم ! في هذه القرون الثلاثة من الدهر ، وفي هذه الرقعة الضيقة من الأرض ، عرف الإنسان عقله وقلبه وضميره ، ورسمت له فلسفة سقراط وأفلاطون وارسطاطاليس مناهج التفكير والشعور والسيرة ، وشقت له طريق الرقي ، وعلمته الطموح إلى الكمال والارتفاع عن النقص ، والتنزه عما يشين .

في هذا كله وفي أكثر من هذا كنت أفكر ونحن نسعى في هذه الأطلال اليونانية مستحضراً تلك الحقبة من الدهر ، متمثلًا ما كان فيها من خير كثير وشر كثير ، وما كان فيها من صراع بين الحق والباطل ، وما كان فيها من اختصام بين العدل والجور ، وما كان فيها من جهاد بين الرفعة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والضعة ، وما كان فيها من ثورة على باطل الحياة وزخرفها ومن سمو إلى المثل العليا . وكنت أسمع خطباء الاثينيين ينافح بعضهم عن الحق ناصحاً ، ويموه بعضهم على الجماهير مضللاً . وكنت أشهد ملاعب التمثيل ، وأرى أصحاب المأساة يرفعون الإنسان إلى صف الآلهة ، وأصحاب الملهاة يضعون الانسان إلى منزلة الحيوان ... وكنت أسمع حوار سقراط ، وأرقى مع أفلاطون إلى ملئه الأعلى ، وأعود مع أرسطاطاليس إلى بحثه المتواضع الرفيع ، وأشهد الأحداث الكبرى تحدث بعيداً عن أثينا ، وتحدث قريباً من أثينا ، وتحدث في قلب أثينا . وأرى جماعة الشعب تحاور في هذا كله ، وتقضي في هذا كله ؛ تصيب حيناً ، وتخطىء أحياناً ، ولكنها مستمسكة دائماً بحقها في السيادة والسلطان والاستئثار بتدبير أمرها من دون الطغاة ...) (١) .

لقد أطلنا هنا نقل كلام طه حسين في ذكرياته عن اليونان القديمة وثقافتها وحضارتها في أثناء إلمامه بأثينا في ربيع عام من الأعوام ، بعد أكثر من ثلاثين عاماً منذ إحكام الودّ العلمي بينه وبين التاريخ القديم لليونان . ولم نشأ أن نخرم من هذا الكلام حرفاً ، أو ننقص منه عبارة حتى لا يضيع بهاؤه ورواؤه واتصال حلقات التفكير فيه . وهو يؤكد لنا شغف طه حسين الباقي بثقافة اليونان وأدبها وفنونها وسياستها وفلسفتها ، مما كان ظاهراً فيه على مدار عمره .

ولعل وقفة الدكتور طه حسين هذه على أطلال اليونان وبقايا آثارها

---

(١) رحلة الربيع ـ لطه حسين ـ عدد ٦٩ من سلسلة « اقرأ » ص ٥ إلى ص ١١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

العظيمة التي كانت تموج بالحياة والرجال ، تحضر في بالنا وقفة الشاعر البحتري على إيوان كسرى حين زاره وألم به في القرن الهجري الثالث ، كما تذكرنا بوقفة الشاعر أحمد شوقي على آثار رومـــا في قصيدته التي يقول فيها :

قف بروما وشاهد الأمر واشهد ... أن للملك مالكاً سبحانه
دولة في الثرى ، وأنقاض ملك ... هدم الدهر في العلا بنيـــانه
مزقت تاجه الخطوب ، وألقت ... في التراب الذي أرى صولجانه
طلل ، عند دمنة ، عنـد رسم ... ككتاب محا البلى عنوانه
وتماثيـــل كالحقـــائق تزدا ... د وضوحاً على المـــدى وإبانه
من رآها يقول هذي ملوك الد ... هر ، هـــذا وقارهم والرزانه
وبقايـــا هياكل وقصـــور ... بين أخذ البلى ودفـــع المتانـه
عبث الدهر بالحواريّ فيهـــا ... وبيوليوس لم يهب أرجوانـه
وجرت ههنـــا أمور كبار ... واصل الدهر بعدهـــا جريانه
راح دين ، وجاء دين ، وولّى ... ملك قوم ، وحل مُلك مكانه

ويبدو أن الدكتور طه حسين قد قصد من الفصل الخاص بوقفته على أطلال أثينا واليونان في خلال رحلة الربيع أن يكون قصيدة منثورة فيها من الخيال والشعور والعاطفة شيء كثير ، وفيها من الحقائق والمعارف عن اليونان شيء موجز كثير .

ويبدو أيضاً أن طه حسين تذكر في وقفتـه بأطلال اليونان سينية البحتري التي نظمها في وقوفه على إيوان كسرى ، فذكرها في الفصل الثاني من « رحلة الربيع » وأشار إليها قائلاً : (وأتغنى في نفسي بسينية البحتري :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

صنت نفسي عما يدنس نفسي وترفعت عن جدا كل جبس

ولكني أضع « يونان » مكان « ساسان » ، وتتغنى نفسي الكئيب ببيت البحتري على هذا النحو :

أتسلى عن الخطوب ، وآسى لمحل من آل « يونان » درس)

وإذا كانت وقفة طه حسين على أطلال اليونان قد امتازت بمعارفها كما امتازت بالبيان المشرق الذي عرضها فيه ، فإن هذا يذكرنا في ختام هذا البحث بإعجاب الدكتور طه حسين بأدب أرسطو الخالد ، ويقصد به قوانين البيان التي استكشفها هذا الفيلسوف العظيم في العبارة والشعر والخطابة ؛ فإن هذه القوانين باقية خالدة ، لأنها تمثل الصور الطبيعية لتعبير الانسان عن آرائه وأفكاره ، كما أن قوانين المنطق ، التي وضعها أرسطو أيضاً ، هي الصور الطبيعية لتكوين هذه الآراء[1] .

• • •

وبعد ! فقد عرضنا لموضوع ثقافة اليونان والرومان وأثرهما في طه حسين وموقفه منهما ، ومشاركته فيهما بالتأليف تارة ، والترجمة أخرى . ولا شك أن الدكتور كان مغالياً في انحيازه لهذه الثقافة وتعصبه لها ، مما أثار عليه مخالفين كثيرين ، وفتح عليه أبواباً من النقد لم تزحزحه عن موقفه. ولقد شارك في مخاصمته حول هذه القضية حفنة من كرام العلماء والباحثين منهم رفيق العظم ، وساطع الحصري كما سلف القول ، ومنهم الأمير شكيب أرسلان ، والدكتور زكي مبارك .

---

(١) قادة الفكر ١٩١ ، ١٩٢

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولقد حملت مجلة الرسالة في سنة ١٩٤٣ لواء مناقشة طه حسين متمثلة في المقالات التي كتبها الدكتور زكي مبارك ملتمساً العذر للدكتور طه فيما ذهب إليه من أن الثقافة اليونانية هي مصدر الثقافة الإنسانية ، وأن الناس في الشرق والغرب وفي جميع الأجيـــال والعصور مدينون للثقافة اليونانية ، وتمنى الدكتور زكي مبارك لو أن طه حسين تريث قليلاً ليعرف أن هناك كتباً أجنبية أخرى غير التي قرأهـا ولخصها الدكتور طه ترى أن المعارف اليونانية منقولة عن مصر ، وأن فلاسفة اليونان لم يكونوا إلا تلاميذ لفلاسفة مصر القدماء .

وعلى الرغم من هذه المناقشات وهـذا الحوار ، فإن الأدب العربي الحديث ، والفكر العربي الحديث ، والمكتبة العربية الحديثة قد أثرى مما كتبه الدكتور طه حسين عن الثقافة اليونانية ، وما نقله إلى العربية من أدبها وشعرها وتمثيلياتها ونظام الحكم فيها .

وإذا كان طه حسين قد غلا في ما ذهب إليه من تقـــدير للثقافة اليونانية ، فإنه لاشك صاحب فضل لا يجحد في تنبيه أهل جيله إلى روائع الفكر اليوناني ومدى مشاركاته في الفكر الإنساني .

القاهرة — محمد عبد الغني حسن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net